الفصل الرابع

" الحس الخلقى "
وقيام " أقدم تجديد اجتماعى " فى مصر القديمة

ويشمل:

(أ) تمهيد (علم المصريات، واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والاجتماعى).

(ب) ديالوج (كارة البشر) مع روحه، وهل تكفى "فلسفة لنـــأكل ونشـــرب ونفرح، لأ ننا، غدا، نموت؟ "

(ج) "الوعى الأخلاقى" عند المصرى القديم من "الفرد" إلى "المجتمع"

١- تجربة "خع خبرع- سنبر" .

٢- تجربة: " امنمحت الأول".

٣- نصائح "أبوور"

(د) "حكمة بتاح حوتب" ونزعة التفاؤل عند المصرى القديم .

(هـــ) تعقيب .

تمهيد:

من الأمور التى لا ريب فيها أنّ الحضارة أقدم عهداً فى مصر مما هـــى فى أى بلدٍ آخر من حوض البحر الأبيض المتوسط، فمنذ سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد شُـــرع هنالك فى إصلاح التقويم، مما يدل على سبق التجارب والتفكير لعدة قرون خلـت، وفى عهد الأسر الأولى، أى فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد بلغت طـــرق العمـــل الفنية شأواً جديراً بالإعجاب، فقد كان النيل الذى يفيد البلاد بأسرها تارة يغـدق على وادية النعيم، وطورا يصب عليه النقمات، مما جعل المصرى لا يدرك أنه قـادر على العمل دون أن يتحقق من أنه حكيم.

وقضت ضرورة إعادة مساحة أراضيه لتحديدها بعد انحدار مياه النيل عنـها، أن يصبح مساحا ومهندسا فنيا، وإذا كانت كل ثقافة تتطلب نظاما اجتماعيا واسع المدى والمدة، فإن مصر كانت فى مقدمة البلاد التى تتطلب نظاما ثقافيا دقيقا[1]

إن حضارة مصر تختلف عن كافة الحضارات الأخرى المعروفة، فى اعتبـارين على الأقل: طول أمدها واستمرارها.

فالسر الأول من أسرار مصر هو استمراريتها، فعند تأســيس رومـــا عنـــد منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، كانت آلاف السنين قد انقضت علـــى وجـــود الحضارة المصرية على ضفاف نهر النيل، وانتشر إشعاعها فى العالم الشرقى حيـث لم تكن الحضارة الإغريقية قد تخطت بعد همهاتها الأولى.

"إن المسافة الزمنية التى تفصل بين بدايات روما، والنشأة الأولى المعروفـــة للحضارة المصرية تعادل تقريبا عددا من القرون يمـــاثل المســـافة الزمنيـــة مـــن

---

[1] بول ماسون – أورسيل: الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر، ١٩٤٧م ص٥١

رومولوس[1] Romulus، وحتى وقتنا الراهن، ويجد خيالنا صعوبة فى تصور الحقيقة البشرية التى تنطوى عليها هذه الأرقام"[2]

ورغم أنّ مصر، كما توحى بذلك الآثار والنصوص، قد حافظت بإصرار على ثبات شكل ومضمون حضارتها، إلاّ أنّه من غير المعقول ألاّ تكون هذه الحضارة قد تطورت بشكل ما، فكل حضارة تنطوى على عملية صيرورة، ولو أنّها ظلت ساكنة فى جمود، لماتت قبل أنْ تولد، إنّ الأفكار والأفعال اليومية شأنها شأن المياه والأمطار والبحر والرياح، تجرف موضوعها، فمن الثابت أنّ عالم مصر قد تطور منذ بزوغ الومضات الأولى لعصور ما قبل التاريخ، وحتى أواخر العصور القديمة

ولمّا كانت قصة الفلسفة الشرقية تبدأ بمثل هذه التأملات التى احتفظت بها الآثار المصرية، فنحن الآن فى وضع أفضل للبحث عن مدى القدم الذى يمكن أن نتعقب فيه جهود الإنسان فيما له صلة بالتفكير المنظم، لأننا نواقون لمعرفة ما يدل على أن هناك "حضارة" - بمعنى منهج منظم لمجتمع تسوده وجهة نظر فى الحياة ملازمة له - سابقة لوجود الآثار المدونة، وعلى أى امتداد زمنى يمكن إدراكها[3]

ويظهرنا علم المصريات Egyptology على أنّ مصر كانت مهد التأمل الفلسفى كما نعرفة، ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨م)، الذى أخذ معه مجموعة ضخمة من العلماء المتخصصين بصورة خاصة فى العلوم وفى الآثار، وأياً كانت درجة إخلاص نابليون نفسه، فلقد كان يتقبل الأفكار الشرقية، حتى أنه أعلن عن نيته فى اعتناق الإسلام.

ولقد استغل فريق العلماء وقتهم أحسن استغلال، وإن ما نشروه فى سنة

---

[1] هو مؤسس روما الأسطورى فى منتصف القرن الثامن ق.م .

[2] بيرجريمال: ص٥ من تقديمه لكتاب "نصوص مقدسة ونصوص دنيوية " من مصر القديمة، المجلد الأول، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦م

[3] راجع أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف، ١٩٨٠م ص٢٧

لينهض دليلاً على ذلك.

ولعلّ أهم نتيجة للحملة، كان الاكتشاف الذى توصل إليه ضابط فرنسى، تصادف أن كان يعمل فى رشيد فى دلتا النيل، وهو اكتشاف حجر بازلتى موجـود الآن فى المتحف البريطانى، يحمل كتابة بثلاثة أنواع من الخطـــوط، الهـيروغليفى، والديموطيقى أو الشعبى، والإغريقى .

وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الإغريقية كما فى الهيروغليفى، هـــى التى أرشدت، بعد دراسة متأنية، عن الدليل إلى تعرف الكتابة الهيروغلفيـــة علـــى الآثار المصرية .

فلما كانت إحدى هذه الكتابات، وهى الكتابة الإغريقية، معروفـــة، فقـــد استطاع العلماء أن يترجموا على الفور ماثبت أنه قانون أصدره بطليموس الخـــامس إبيفانوس Ptolemy V Epiphanus (٢٠٥- ١٨١ ق.م).

أمّا الافتراض الذى برهن فى الوقت المناسب على أنه صحيح، فهو بالنســـبة للكتابتين الأخريين، أعنى الهيروغليفية، والكتابة الأخرى باللغـــة الأكـــثر شـــعبية والمعروفة بالديموطيقية، وكانتا ترجمتين أمينتين عن الإغريقية، ومع ذلك فإن عمليـــة كتابة لغة بحروف أخرى وعملية الترجمة قد أثارتا مشاكل متنوعة[١].

وقد شحذ النقش على حجر رشيد والمحفوظ الآن بالمتحف البريطانى، لأمد طويل، هم العلماء فى كل بلد أوروبى، خاصة فى ألمانيا وانجلترا وفرنسا، ولكننـــا ندين بالفضل إلى دارس فرنسى شاب لعلم المصريات يدعى جان فرنسوا شـامبليون Jean Francois Champollion (١٧٩٠ - ١٨٣٢) تم على يديه تفســـير الطلاســـم الأخيرة لهذا النقش .

وقد يمكن الاستدلال على شيء من عظمة ما حققه شامبليون من إنجاز مـــن أمرين، فى المقام الأول، كان النصُ مستمراً فى السرد دون مراعاة لأية فواصل بـــين الكلمات، وثانيا، لم يعرف شامبليون ولاأى عالم آخر معاصر له، فى البداية، هـــل

---

[١] توملين: فلاسفة الشرق، ص ٢٩.

كانت العلامات الهيروغليفية تمثل أفكاراً أو أصواتاً أو مقاطع، أو باختصار هل كانت كتابة رمزية أو صوتية أو محض كتابة مقطعية، كما أن الخبراء لم يدركوا، اللهم إلاّ بعد تروٍ طويل، إنّ الكتابة الهيروغليفية كانت فى الواقع قائمة على مزج حروف الكتابة الرمزية والصوتية، وأنّ بعض الحروف الأخيرة كان عملها مساعدا فحسب على الفهم أكثر من أن تكون عناصر فى النطق، وهى حقيقة استنبطها شامبليون أصلاً من زيادة عدد الرموز الهيروغليفية على الإغريقية .

وقد قضى شامبليون أربعة عشر عاماً ليفسر طلاسم الكتابة الهيروغليفية، وعشر سنوات أخرى ليكتسب إلماماً باللغة، وفى سنة ١٨٢٢ م صار فى حوزته الوسائل التي تمكنه من تفهم عقلية مصر القديمة، ومنذ غلق المعابد المصرية فى القرن الثاني بعد الميلاد، لم يكن فى الإمكان الوصول إلى مثل هذه الثروة.[1]

---

[1] تولى بعد شامبليون علماء من كل بلد أوروبي، ولن ينسى التاريخ أبدا عالما مصريا رائدا فى مجال دراسة الهيروغليفية، ذلك هو الأستاذ أحمد كمال، أول مؤرخ عربى كتب فى تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابه علمية سليمة، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين.

ولد (أحمد كمال) سنة ١٩٤٩ م بالقاهرة، وتعلم فى (مدرسة الألسن)، أو مدرسة (بر ونمش) للآثار واللغات القديمة، ثم عمل فى مصلحة الآثار المصرية، التى كان يسيطر عليها الأجانب، حتى أصبح أمينا للمتحف المصرى، وكان أول مصرى، وعربى يحتل هذا المنصب الذى شغله حتى تقاعد سنة ١٩١٤م، وهو فى الخامسة والستين من عمره، وعاش بعدها تسع سنوات حتى توفى سنة ١٩٢٣م، عن أربعة وسبعين عاما، وقام بتدريس اللغة المصرية القديمة، والحضارة المصرية فى المدارس والجامعات الأهلية، ونال عضوية المجامع العلمية واللغوية، وحصل على كثير من الرتب والأوسمة، وله ثمانية كتب مطبوعة، وعددا كبيرا من المقالات والبحوث المنوعة، ونشرها باللغات العربية والفرنسية.

وأحمد كمال، نموذج رائع للعالم المؤمن بقضية عروبة مصر منذ فجر التاريخ، أدرك حقيقة الصلة المتينة بين اللغتين المصرية والعربية، وجاهد لكى ينبه الأذهان – فى وقت مبكر جدا –إلى ما بين اللغتين من وشائج وصلات، ساعده فى ذلك إلمامه بكثير من اللغات، كالفرنسية والإنجليزية، والألمانية، بجانب العربية والتركية، وإطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث فى اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة.

يقول (أحمد كمال) فى محاضرة ألقاها بمدرسة المعلمين القاهرية سنة ١٩١٤م:

ويظهرنا هذا الكشف على أن المصريين أول أناس، بل أول شعب يناقش المشاكل الأخلاقية، مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم.

ففيما وراء حقيقة أن المصرى القديم قد مارس التحنيط وبنى الأهرامات الضخمة، إلا أن الشعوب بوجه عام لم تكن على علم تام بما حققه هؤلاء المصريون الماهرون، ولا شك أن أصول الفكر واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والإجتماعى أقل إثارة من التنقيب عن مقبرة أو فتح تابوت من التوابيت الحجرية.

وبرغم أن وجود الإنسان على ظهر البسيطة ربما يرجع إلى مليون سنة قبل ظهور أول "آداب للغة Literature" معروفة، فإننا لا يمكننا فى وضعنا الراهن بما لدينا من

"أعلموا أيها السادة أن كثير مطالعتى فى اللغة المصرية القديمة منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى إلى أن بلغت السنين مهدت لى سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد....."

وأدى به هذا الاكتشاف إلى كتابة معجمه الذى استغرقت كتابته، ما يقرب من عشرين عاما، وأخرجه فى اثنين وعشرين جزءا، ويتضمن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفية، وكانت طريقته فى هذا المعجم أن يدون الكلمات الهيروغليفية- وقد يسجل أحيانا النصوص التى احتوتها- ثم يذكر مرادفاتها العربية والفرنسية والقبطية والعبرية.=

=وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريبا قبل أن يظهر قاموس إرمان "وجرابو" الصغير سنة ١٩٢١، كما أن المعجم المصرى الكبير المعروف بقاموس برلين، الذى أخرجه المجمع البروسى جامعا بين الكلمات المصرية والقبطية والألمانية، لم يظهر إلا فى الفترة بين ١٩٢٦، ١٩٣١ أى بعد بضع سنوات من وفاة المرحوم أحمد كمال. راجع : الدكتور محمد جمال الدين مختار: " أحمد كمال- العالم الأثرى الأول فى مصر" المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤م-١٩٦٥م، الصفحات ٤٣-٥٧.

وعن " فكرة " أن اللغة المصرية القديمة ليست إلا فرعا من اللغة العروبية (أى لغات الوطن العربى القديمة، فى بلاد الرافدين والشام والجزيرة وجزء من شرق أفريقيا) الأم، لها أوثق الصلات بالعربية فى قديمها وحديثها، والعربية الشمالية، لغة الحجاز، أو العربية العدنانية، وهى الفصحى.

عن هذه الفكرة، راجع الدكتور على فهمى خشيم: ألهة مصر العربية المجلد الأول، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، ١٩٩٠م.

معرفة أن نظن أن كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون.

لماذا مصر إذن؟

يمكننا أن نبدأ بالإشارة إلى أنه بعد الجفاف البطئ فى شمال إفريقيا فى مستهل العصر النيوليتى Neolithic period (حوالى ٥٠٠٠ ق.م.) بقيت مصر منطقة محمية نسبيا.

لقد زودتنا عمليات التنقيب التى بدأت منذ عهد طويل بقدر طيب من المعلومات عمن كانوا يقطنون وادى النيل فيما قبل التاريخ، إذ قد لجأ كثير من هؤلاء الناس إلى ذلك الإقليم الخصب بعد أن لحق القحط بهم وبقطعانهم، وتوحى المقابر التى اكتشفها علماء الآثار بأن المصريين فى العصر النيوليتى وما بعده كانوا يضمنون على الأقل مقوما واحدا من مقومات الحضارة، وهو استمرار التمويل الغذائى، ويبدوا أنه لم ينعم شعب آخر على ظهر الأرض بمثل هذه الميزة من قبل.

وفضلا عن هذا، فلقد عرفوا كيف يستخدمون المعادن وكيف يستأنسون الحيوانات، ومن عادات دفنهم، يبدوا أنهم كانوا يغذون ذلك الاعتقاد الراسخ فى الحياة بعد الموت الذى من أجله تبعا لتطور حضارتهم، سعوا بأساليب مختلفة لأن يعدوا أنفسهم له.

وإذا كان هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد قد ذكر "أن مصر هبة النيل"، وأن التربة والحاصلات والنبات والحيوان والحياة الإنسانية كلها على السواء، يقرر أمرها النهر العظيم، وهو الذى قبل مجيء الإنسان بزمن مديد، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى، وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا.

ومصر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الأول، الحد الجنوبى القديم، إلى الدلتا، والوادى يتراوح اتساعه من عشرة إلى ثلاثين ميلا، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب، ويعتمد رخاؤه، الآن، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا مضت، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة، فيضان النيل السنوى، الذى تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية،

وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام شـــائل فى حيـــاة وعـــادات الشعوب.

نقول: إن اعتبار مصر حصيلة سعيدة للظروف الطبيعية البحتة المتمثلة فى نهـر النيل فقط، فيه سوء إدراك خطير ويمثل نصف الحقيقة فقط، إذ يجب أن نضيـف إلى ذلك جهد المصرى القديم الذى جعل الحياة فى ذلك الوقت الذى انعدم فيه انتظـام فيضان النيل، جعل الحياة ممكنة بل ومستمرة.

فقد حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الإنسان المصرى القـــديم إلى صـــد غائلة المجاعة التى تحل من حين إلى آخر، ولايوجد مكان آخر صاول فيـــه مكـــر الإنسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاول هنا[1].

كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات، وأظهر المهندســون فى مصر القديمة فى إنشائها تمكنا فنيا عاليا، وخزان بحيرة موريس الفسيح، وهو مـــن عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة (فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليـلا على ذلك الجهد الذى صد به المصرى القديم الظروف الصعبة التى خلفـــها عـــدم انتظام فيضان النيل؛ ونحن نعلم فى الواقع من نقوش قديمة مختلفة أن النيل، نظرا لأن فيضانه يصل إلى مناسيب غير منتظمة، قد جر الخراب عدة مرات علـــى البـــلاد، والكوارث العشر التى وصفها "سفر الخروج" ربما تمثل كما أوضـــح فلندرزبـــترى Flinders Petrie أحسن إيضاح فى كتابه "مصر واسرائيل"، صورا متعاقبة لمثل هـــذه الكارثة، باختصار، فإن بقاء مصر يرجع إلى جهود الإنسان، أعنى الرى.

فالمتتبع لنظام الرى فى مصر القديمة، يجد أنه كان نظاما غاية فى الدقـــة، وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن بلدا يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلومتر وعرضه بضعة كيلومـــترات، ولا يضم أكثر من ٣٠,٠٠٠ كيلومترا مربعا من الأراضـــى المزروعـــة (٣,٥ %) لأدركنا مدى خطورة هذه المشكلة التى كان يسببها عدم انتظام فيضـــان النيـــل، ولأدركنا أيضا كيف كان المجتمع المصرى أقوى مجتمع بشرى، وأكثر صبرا وجلـــدا عرفه التاريخ.

---

[1] و.ج. دى بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى سوس، راجعه الدكتور يحي الخشاب ودكتور صقر خفاجه، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، ١٩٦٥، ص ٣٠ وأيضا:

Maspero, Le Nil et La Civilisation Egyptienne, Paris, Ren.du Livre (Evol. de L. Human.),1926

إن الخيال يبهر عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى، الذى يمتد إلى الوراء، إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، وهو ليس مجـــرد تـــاريخ حـــروب وغزوات ملوك، ولكن تاريخ عقائد وعادات وفن وثقافة يشـــمل سلســـلة مـــن المدنيات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس إلى ذلك الحين.

فكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون إلى ما قبل الأسرات، قد حذقوا فنـــون صناعة الصلصال والحجر ووصفوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما، والتى اتخذهـا بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة، يوليوس قيصر، ولايزال العمل يجرى بهـــا حـــتى يومنا الحاضر[١]

وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألـــف ســـنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق.م. سلسلة من حقب المدنية، كل حقبة بعهودها من الصعود والهبوط.

ففى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخـــرى فى مصر العليا أدمجهما مينا، أول ملك فى الأســـرة الأولى (حـــوالى ٣٤٠٠ ق.م.) فى حكومة واحدة، ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى حول قيـــام وسقوط ثلاث حقب عظيمة من التطور: الدولة القديمـــة، والدولـــة الوســـطى، والإمبراطورية الحديثة[٢]

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى إلى السادسة)، وقد وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة إلى ذروته إبان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيـــس (مـــن ٢٩٠٠ ق.م.)، وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب علـــى النوبة، واستغلوا مناجم سيناء، ونهضوا بالتجارة بأســـاطيلهم فى البحـــر الأحمـــر والمشرق.

ولقد كانوا إداريين وبنائين عظاما، وضعوا نظاما مثاليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين، وأوصلوا رى البلاد إلى درجة عالية من المهارة، وشيدوا أهـــرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم، كما أن فن هذا العهد، وخاصة نحـــت الصـــور

---

(١) Breasted (J.H.), Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. New York, 1912, pp. 1-25.

(٢) راجع بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ص٣٢

والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية.

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢)، فقد سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدى الأشراف أصحاب الأراضى، ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام إلى أن قامت ملكية ثانية مركزة، تعرف بالدولة الوسطى فى طيبة فى مصر العليا تحت حكم فراعنة من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠-١٧٨٠ ق.م.)، وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع الصومال فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط.

وتحت حكم الدولة الوسطى وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم وازدهر الأدب.

(٣) الإمبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة):

أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة كانت فيها مصر تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس) أو مايطلق عليهم الملوك الرعاة، وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة، ويبدأ أعظم العهود روعة، إذا لم يكن فى الثقافة المصرية، فعلى الأقل فى السلطة السياسية، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق.م.)، وبداية تكوين جيش منظم غزا سورية وفينيقية وحارب الحيثيين على الفرات الأعلى، ودان له بالسيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية.

وقام على تدبير الأمور فى تلك الإمبراطورية لفيف عظيم من موظفى الدولة، وكان هذا العصر أعظم عصور الفن المعمارى المصرى، وكان معبد الإله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة، وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة (تحوتمس) الثالث.

وبعد انقضاء قرنين من العظمة الإمبراطورية بدأت بوادر الانحلال فى الظهور، فنجد الرؤساء المرتزقة، الليبيين يحكمون فى الدلتا، وأمراء أثيوبيين فى مصر العليا، وفى أواخر القرن السابع (٦٧٠ ق.م.) غزا الأشوريون الدلتا تحت إمرة أسرحدون، وجعلوا من مصر ولاية تابعة، وبدأ عهد الحكم الأجنبى بسقوط مصر أملم

الفرس سنة ٥٢٥ ق.م.، وظلت البلاد خاضعة لإمبراطورية فارس فيما عدا ثورات متقطعة خاطفة حتى مجيء الإسكندر المقدوني (٣٣٢ - ٣٣٠).

تقدم لنا نقوش مصر القديمة أقدم فصل فى تطور الإنسان الخلقى، كما نعرفه، فصل ربما يحدد أهم خطوة أساسية فى تطور المدينة، وهذه المواد، التى تقدمها هذه النقوش، من الوفرة والبعد عن اللبس بحيث توضح أنه كانت توجد منذ قرابة ثلاثة آلاف سنة ق.م، قدرة على الحكم الخلقى النفاذ، كانت قد تطورت إلى شوط بعيد، مما يجعلنا نستنتج أنها بدأت فى زمن سحيق القدم فى الألف سنة الرابعة ق.م .

وظهر فى هذا العصر، أقدم تعبير معنوى أمكن تبينه فى العالم القديم، وهو الكلمة التى تدل على"الصدق والحق والاستقامة والعدل" وكلها تعرف بكلمة واحدة .

وعلاوة على هذا، فإنه فى الحياة الدنيوية اليومية فى هذا العصر البعيد، حتى فى الإدارة، كان للمثل العليا تأثير عظيم، وفى عصر الإقطاع بعد ألف سنة من قيام الدولة القديمة، جرت العادة، عند تنصيب الوزير، أن يوجه ذلك الموظف إلى مثال وزير قديم، كان قد قدم حكما نزيها فى قضية كانت تشمل أقاربه، ضد ذوى قرابته بغض النظر عما فيها من حق أو باطل لئلا يتهم بإصدار حكم فيه تحيز لصالح أسرته هو.

إن أكثر الفضائل شيوعا، بين الشعب فى ذلك الوقت، والتى تكشف عنها نقوش مصر القديمة، هى الأخلاقيات شديدة الود والاحترام من الأبناء تجاه آبائهم، إننا نجد، مرارا وتكرارا القبور عظيمة التكوين، فى عصر الأهرام، يقيمها الابن لأبيه الراحل، وكذلك دفنا رائعا يهيئه الابن، ويتجاوز أحد أبناء هذا العصر مثال الآخرين كلهم فنجده يذكر فى عبارة جاءت فى نقوش قبره:

" والآن عملت على أنه يجب أن أدفن فى نفس القبر مع " جاو" (أبيه) حتى أكون معه فى نفس الموضع، ليس مع هذا، لأنى لم أكن فى موقف يمكننى من صنع قبر ثان، ولكن فعلت هذا حتى يتيسر لى أن أرى "جاو" هذا كل يوم، حتى يمكن أن أكون معه فى نفس المكان " [1] وعلى قاعدة تمثال مقام فى أحد القبور، نقرأ:

---

[1] راجع برستيد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص٢٤٢

" عملت على أن يصنع مثال هذه التماثيل، وقد رضى بالأجر الذى دفعته له"[1]. إن الرجل كان يريد، فى جلاءٍ واضح جداً، أنْ يعرف بأن معداته الجنازية حصل عليها بأمانة .

ويترك لنا حاكم إقليم عاش فى القرن السابع والعشرين ق.م السجل الآتى عن حيانة القويمة:

"لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع فى جبل، لقد كسوت من كان عارياً هناك . لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة، وأراضيه المنخفضه بالماشية الصغيرة، ماظلمت أحداً، وكنت أنطق بما هو خير وأتحدث به، إنى لا أنطق بأكذوبة لأن شخصاً يحبه أبوه وتثنى عليه أمه، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوباً لدى أخته ".

إنَّ هؤلاء القوم، الذين عاشوا منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة أو خمسة آلاف سنة، يؤكدون مراراً وتكراراً بُرءَهم من عمل السوء. " لم أرتكب أبداً أى شىء سيئ نحو أى شخص " هكذا يقول كبير أطباء الملك ساحورع فى منتصف القرن الثامن والعشرين ق.م. بينما يقول كاهن، بعد ذلك بزمن وجيز نفس الشئ فى مضمونه: " لم أرتكب أبداً أى عملٍ من أعمال العنف نحو أى شخص ".

ونُطالع خطاباً، وضعه مواطن عادى، فوق واجهة قبره، يقول، موجهاً حديثه الى الأحياء :

" أيها الأحياء، الذين يمرون بهذا القبر، كنت شخصاً يحبه الشعب، ما أخذت أبداً ملك أى إنسان عنوة، لقد كنت أصنع ماكان يسر به كل الناس ".

ويتضح من أمثال هذه الخطب للأحياء، أنَّ أحد دوافع هذه التوكيدات عن الخلق الجدير بالتقدير كان الرجاء فى المحافظة على رضى الجيران، جيران المرء الباقين على قيد الحياة، حتى يقدموا قرابين جنازية من طعام وشراب فى القبر؛ وكذلك فمثل هذا السلوك الخلقى، كان يُعتبر ذا قيمة فى نظر الآلهة، ويمكن أنْ يؤثر تأثيراً مادياً على سعادة الميت فى الآخرة.

---

[1] تمثال فى مجموعة جامعة ليبزج، شفيندورف، ص١٥٦

وتُظهرنا نصوص الأهرام على أنه لمواجهة كل احتمالات الآخـــرة، كيـــف كان مما لاغنى عنه، تطهير الميت فى قمة مراحلة فى فترة انتقالة من مكانه الأرضـــى إلى مكانه السماوى، ومغزى هذا التطهير ليس فقط فى التنظيف البدنى بل وأيضاً فى التطهير الخلقى .

وحتى فرعون، الذى انتقل إلى السماء والذى أُعلنت براءته، يـــداوم علـــى إظهار نفس الخصائص فى النهوض بسيادته السماوية التى يتسلمها :

"إنه يحكم بالعدل أمام رع فى يوم العيد " أول السنة"، إن السماء فى حالة راضيـــة والأرض فى ابتهاج، وقد سمعنا أن الملك وضع العدالة (مكان الجور)".

ولايوجد شك فى أنه فى الدولة القديمة، نتج عن سيادة رع أنْ نُسبت إليـــه المطالب الخلقية التى يلتزم بها الموتى فى الآخرة، وأنَّه جاء فى أدب ذلك العصر الـذى وصل إلينا، أن الإستقامة خصيصة ترتبط بآلهة عديدين فى الدولة القديمة، ولكـــن لايُدانى واحدٌ من الآخرين بروز "رع" فى هذا المضمار .

واعتبار النعيم بعد الموت يعتمد، على خصيصة حياة المتوفى الدنيوية الخلقية، كان خطوة هامة فى سلوك المصرى القديم، ولابد أنه كان وعياً خلقياً عميقاً هـــذا الذى جعل فرعون الإلهى الذى كان فوق وصايات الحكومة الأرضية؛ يجد حُســـن القبول أمام القاضى السماوى وخاضعاً للمطالب الخلقية، ويمكننا أنْ نتبين هذا الأثر لتقدم الوعى الخلقى وهو يندرج حتى على الملك فى مطالبه المتعالية فى الفترة الزمنية التى استغرقتها نصوص الأهرام، وتتضمن قرناً ونصف القرن .

وعندما خرجت مصر من الظلام الذى أعقب عصر الأهرام، وبعـــد قـــرن ونصف قرن من التطور التمهيدى الذى وصل إلى منتهى عصر الإقطاع (الأســـرةً الثانية عشرة) حوالى ٢٠٠٠ ق.م فإنَّ رجال هذه الحقبة الكلاسيكية تطلعـــوا إلى الوراء، إلى كفاح قام به أجدادهم مع الموت، مازال موجوداً بأثاره علـــى قبـــور الأسرتين الأوليين فى أبيدوس وماجاورها.

وترتب على الحكم على المطالب الخلقية، تأمل ذاتى، وبدأ الإنســـان لأول مرة فى التاريخ يتأمل نفسه، وكذلك مصيره، إنه عصر ناضج، تجاوز فيه الإنســـان المصرى القديم حد قبول المعتقدات التقليدية قبولاً لا تردد فيه، وبدأ يفكر فيما كان حتى ذلك الحين موضع قبول دون تفكير، إنه الاعتراف الواعى بالقدرة الشـــخصية

على الاعتقاد أو عدم الاعتقاد، وفى هذا خطوة واضحة إلى الأمام فى تطور الوعى الذاتى والابتكار الشخصى.

ونجد تعبيرا عن اتجاه المصريين القدماء العقلى هذا فى الأغنية التالية:[1]

" ماأعظم رخاء هذا الأمير الطيب![2]

إنه مصير خير، أن الجسوم تتضاءل

وتذهب، بينما يبقى غيرها

منذ أيام السلف،

الآلهة الذين كانوا فى الماضى،

الذين يستقرون فى أهرامهم

النبلاء والأمجاد، رحلوا كذلك

مقبورين فى أهرامهم

لايوجد بعد لهم مكان

شاهدوا ما يفعل داخلها

لقد سمعت كلمات إمحوتب وحرجدف[3]

---

[1] نشرها و.م. ملفر W.M. Meller " أغانى الحب" المتحف البريطانى لوح (٦) ٢،١ ولوح (٧)١،٣.

[2] يقصد الملك المتوفى الذى كتبت فى قبره الأغنية .

[3] كان(أمحوتب) وزيرا ومهندسا معماريا وحكيما ذائع الصيت فى عهدالملك زوسر (زسر نثرخت- Ze set Nether Khet) مؤسس وأعظم ملوك الأسرة الثالثة (٢٧٨٠-٢٦٨٠ ق.م) فى عهد الدولة القديمة، يمتاز عهده- زوسر= بتقدم كبير فى جميع مظاهر الحياة وأخصها البناء، مما يجعل مدة حكمه بحق فاتحة عهد جديدة فى تاريخ مصر، التى شاء حظها أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد النوابغ الذين تركوا أثرا واضحا فى تاريخ البشرية، ذلك هوأ محوتب، وقد عرف الملك زوسر قيمة نبوغه فمد له يد العون، وممكنه من تحقيق آرائه.=

(كلمات) ذاعت ذيوعا عظيما على ألها نطقاقم

شاهدوا أمكنتهم

لقد هدمت حيطانها

= وقد ارتبط اسمه باسم الملك زوسر، سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال، فإن المصريين خلدوا اسميهما معا، وظل الناس يذكرونهما حتى آخر أيام التاريخ المصرى، واعتبره الكتاب المصريون فى الدولة الحديثة، إماما وحاميا لهم، وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله إراقة بضع قطرات من الماء قربانا له.

" وأمحوتب" أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم فى شكله العام، وهو قبر الملك زوسر الذى جاء على شكل هرم مدرج ذا ست درجات كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض.

وقد عرف زوسر قدر مهندسه، فكرمه، واراد أن يخلده معه، فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله، وهذا تقدير كريم لم نعرف له شبيها لأن الملك كان إلها معبودا من شعبه وأراد أن يخلد معه امحوتب الذى عرف له مكانه فى دنيا النبوغ الذى لم يقتصر على فن العمارة والنحت، بل نبغ أيضا فى الطب وألف فيه، كما ألف فى الحكمة، وألهه المصريون بعد وفاته وشيدوا له المعابد، واطلقوا عليه" ابن الإله بتاح".

وكان المتبع فى مصر حتى ذلك العهد، وبعد ذلك العهد أيضا حتى الأسرة الخامسة، أن جميع الوظائف الكبرى، لايتولى أمورها فى أكثر الحالات إلا أفراد البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه، فهل كان " أمحوتب " ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ماوصل إليه؟ وما الذى جعل الملك يكتب اسمه على تمثاله، وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده فى وقت سطوة ملوك الدولة القديمة؟ لم يكن أمحوتب إلا فردا من أبناء الشعب، وكان مولده على الأرجح فى بلده الجبلين بين الأقصر وإسنا فى قنا، أما ابوه فكان مثل إبنه مشرفا على الأعمال، وإنما الذى أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده.

راجع -J.B. Hurry, Imhotep, The vizier and physician: of King Zoser (1926).

3vols, Cairo, 1936-1939.

الدكتور أحمد فخرى: مصر الفرعونية، القاهرة، الطبعة الثانية، أكتوبر ١٩٦٠ م ص ٩٠-٩٢؛

الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول (مصر)، ص ١٢٥-١٢٦، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠م.

– أما (حرجرف) فقد كان أميرا ملكيا وابنا لخوفو (الجيزة)، وعاش بعد قرن من أمحوتب.

كأنها لم تكن أبدا
لا يأتى أحد من هناك
حتى يخبرنا عن حالهم
حتى يخبرنا عن حظوظهم
حتى يدخل السكينة إلى قلبنا
إلى أن نرحل نحن (أيضا)
إلى المكان الذى ذهبوا إليه "

إلى أن تقول كلمات الأغنية :

"شدد عزيمة قلبك وأنت عائش
ضع المر على رأسك
وارتد ثيابا من رقيق الكتان
وقد تشبعت بالأشياء المترفة
لا تدع للتراخى سبيلا إلى قلبك
كيف أمورك فى الدنيا
وفق أوامر قلبك
إلى أن يحل يوم النواح عليك، ذلك
عندما لايسمع ساكن- القلب نواحهم
أوذاك الذى فى القبر يحضر الحداد
احتفل باليوم البهيج
لا تكن متعبا فيه
هاكم : لا يأخذ إنسان سلعه معه

بلى، لايعود أحد مرة ثانية، ذاك الذى ذهب هناك" .

على هذا النحو كانت مشاعر بعض أولئك الرجال الذين عاشوا فى عهد الإقطاع وهم يتطلعون إلى قبور سلفهم، ويتأملون فى عدم الجدوى الهائل فى جبانات أهرام الدولة القديمة الفسيحة الأرجاء، حتى أنه ورد إلى ذاكرة المغنى أسماء بعض الحكماء الذين عاشوا منذ ألف سنة خلت، والذين أصبحت أقوالهم مضرب الأمثال، وبذلك وصلوا إلى ما يتجاوز خلودا يهيئه ضريح فى قبر عظيم.

و لم تكن أبدا مسألة صدفة أن (أمحوتب) أول الاثنين اللذين يخلد المغنى ذكريهما، وأن يكون (حرجدف) ثانيهما، فالأول (أمحوتب) كان أقدم مهندس عمارة فى البناء، كان أبا لفن العمارة بالحجر، وصاحب أقدم بناء علوى حجرى لايزال باقيا من العالم القديم هو ما يطلق عليه " هرم سقارة الحجرى المدرج"، فتعود الأغنية إلى قبر مهندس العمارة الأول، العظيم، هذا، وتظهرنا على حالة الدمار التى لحقت به، حتى أن أمكنته " كأنها لم تكن "، وفى الواقع لا يعرف مكانه إلى هذا اليوم .

و(حرجدف) أيضا، الحكيم الذى تذكره القصيده، كان ابنا لخوفو، وعلى ذلك كانت له صلة بأكبر هرم، وقبره لا يعرف مكانه هو الآخر حتى اليوم .

وواقعة أن هذين الحكيمين القديمين (امحوتب وحدجرف) بقيا خالدين فى أقوالهما فقط، هذه الواقعة كانت توضيحا آخر لعدم الجدوى فى العوامل المادية كوسيلة للخلود، وفى الوقت نفسه، فإن توارى أمثال تلك الأرواح، كهذين، إلى قبور لا يمكن أن يتبينا بعد فيه، الذى لا يعود منه أحد ليخبر عن مصيرهم، يضيف على أعظم نغمة كئيبة، فيها تشوق وحنين فى كل هذه الأسطر، إنها نغمة يخال لنا أننا نسمع صدى لها فى الشرق بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة فى أبيات عمر الخيام:

" غريب، ليس كذلك، إنه من بين الجموع

الذين اجتازوا قبلنا باب الظلام

لا يعود واحد ليخبرنا عن الطريق

التى، للكشف عنها، يجب أن نقطعها أيضا "

وهنا يكشف للعيان تشكك يرتاب فى جميع الوسائل، مادية أو غير مادية، للوصول إلى نعيم أو حتى بقاء فيما يوالى القبر، ولا يوجد جواب على مثل هذه الشكوك، وتوجد فقط وسيلة لتنحيتها إلى جانب مؤقتا، وهذه الوسيلة يمكن أن توجد فى إرضاء المتعة الحسية التى تغرق مثل هذه الشكوك فى خضم النسيان " لنأكل ونشرب ونفرح، لأننا، غدا نموت " .

ولكن من الخير، على أية حال، أن يترك المرء اسما طيبا يبقى على الزمن،خلفه، ليس لأن ذلك بالضرورة يضمن للرجل الصالح أى شئ فى العالم القادم، ولكن بالحرى ليبقى فى عقول أولئك الذين يبقون وراءه.

(ب) " ديالوج كاره البشر مع روحه "وهل تكفى فلسفة"لنأكل ونشرب ونفرح لأننا، غدا، نموت"؟!

ومع هذا، فإنه كان يوجد أولئك الذين رفضوا حتى هذه النصائح على أنها ليست إلا حلا سطحيا لمسألة الحياة، القائمة، ولنفرض أن الاسم الطيب يضيع دون ذنب وبغير حق، وفرص المتعة الذاتية يبعدها المرض وسوء الطالع .. إنه بالضبط هذا الموقف الذى يعرض علينا فى وثيقة من أعظم الوثائق أهمية، وصلت إلينا من هذا العصر السحيق، ويمكننا أن نطلق عليه " ديالوج كاره البشر مع روحه " والموضوع العام هو القنوط الذى ينجم عن الموقف السابق ذكره قنوط يتحول إلى الموت على أنه المخلص الوحيد، وهذا الموضوع فى ذاته عقلية، تجربة لمصاب دون حق[1] .

إن هذا التعيس (كاره البشر) كان رجلا وادع الروح، ومع هذا لحقته مصائب كثيرة، لقد ألم به المرض فهجره أصحابه وحتى إخوته، الذين كان يجب أن يعنوا به فى مرضه، وفى غمرة محنته سرقة جيرانه، حتى أن عمله الصالح الذى فعله بالأمس لم يعد يذكره أحد، واصبح اسمه الذى كان يجب أن يحوطه التبجيل، له رائحة تزكم أنوف الناس.

وفى هذه المرحلة، وهو فى ظلام ويأس، ويعتزم أن يودى بنفسه، تبدأ الوثيقة وصاحبنا يقف على حافة القبر، يفزع روحه من الظلمة فى رعب ويأبى أن يصحبه،

---

[1] إن الوثيقة هى بردية من الدولة الوسطى موجودة فى برلين، أعاد إرمان نشرها عام ١٨٩٦ م:
(Gespruecheines lebensmueden mit: Seiner Seele) Abhandl der Koenigl. Preuss: Berlin 1896.

وفى ديالوج طويل يتحدث مع روحه كأنه مع شخص آخر، ولكن روحه لا تطاوعه وسبب هذا الموقف توجسها من عدم وجود قبر يقطن به بعد الموت، وفى بداية الأمر يظهر هذا على شئ من الغرابة، نظرا إلى التشكك الذى كان يرى فيه أمثال هؤلاء الرجال مثل هذه الاستعدادات المادية للموت، كما برهن صاحبنا (التعس) أنه واحد منهم، ويظهر أن الروح نفسه كان قد نصح بالموت حرقا، ولكنه فزع من هذه النهاية المروعة، ولما لم يكن هناك صديق أو قريب على قيد الحياة ليقف بجوار التعس ويؤدى الشعائر الجنازية، فقد عكف صاحبنا (كاره البشر) على أخذ المواثيق على روحه ليؤدى هذه المهمة، ولكنها الآن ترفض الموت على أيه صورة؛ ولايوجد إلا حل واحد، هو أن يعيش المرء مستغرقا فى نسيان الحزن والقضاء عليه كله بالأخذ بأسباب المسرات.

وبعد هذه المرحلة من الديالوج بما فيها من فلسفة: " **لنأكل ونشرب ونفرح لأننا، غدا، نموت**"، يتقدم صاحبنا (كاره البشر) إلى خاتمة رتيبة توضح أن الحيلة، وهى أبعد من أن تكون فرصة للعشرات والمتعة التى لا ضابط لها، أكثر قابلية لعدم الاحتمال، من الموت، وهذا التوضيح تحويه **أربع قصائد** يخاطبنا بها صاحبنا (كاره البشر).

(١) تصور الأولى الكراهية غير العادلة التى يضمرها العالم لاسم التعس، ولتأكيد هذا، يقدم للموازنة شيئا ممقوتا فى حياة الشعب اليومية وخاصة رائحة السمك والدواجن المعروفة والشائعة فى حياة ساكن النيل، تقول بعض أبيات القصيدة:

" هاكم : إن اسمى مكروه
هاكم: أكثر من رائحة الطير
أيام الصيف عندما يكون السماء حارا
أكثر من رائحة الدواجن
على تل الصفصاف الذى يزخر بالأوز
أكثر من رائحة صائدى السمك
بجوار شواطئ الغدران عندما يكونون قد اصطادوا

هاكم : إن اسمى مكروه

أكثر من امرأة

قيلت ضدها أكذوبة لزوجها "

وهذه القصيدة الأولى ليست إلا ترديدا لواقعة أن اسم الرجل التعس قد أصبح ذا رائحة تزكم أنوف أنداده .

(٢) وفى القصيدة الثانية، يتحول صاحبنا (التعس، كاره البشر) عن نفسه ليصف المسئولين عن تعاسته، إنه يلقى النظر على مجتمع زمانه، ولا يجد إلا الفساد وعدم الأمانة والجور وعدم الوفاء حتى بين ذوى قرابته، إنه حكم مخيف، ويستهل صاحبنا كل مقطع بسؤال " لمن أتحدث اليوم ؟ "، وربما كان يعنى " أى نوع من الناس أولئك الذين أتحدث معهم؟ " ويتلوكل تكرار لهذا السؤال حكم جديد، وحول هذه المعانى تدور أبيات القصيدة الثانية، يقول فيها:

" لمن أتحدث اليوم؟

إن الأخوة، أخوة سوء

وأصدقاء هذا الزمن ليسوا (على حب)

إن القلوب تتلصص

وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الرجل الوادع يفنى

وذو الوجه الجسور يذهب إلى أى مكان

إن ذا الوجه المسالم، تعس

لمن أتحدث اليوم ؟

السرقة تمارس

وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره

لمن أتحدث اليوم؟

إن القلوب تميل إلى اللصوصية

إن الرجل الذى يستند المرء إليه، ليس لدية فهم

لمن أتحدث اليوم ؟

لا يوجد أخيار

إن الأرض لأولئك الذين يرتكبون الإثم

لمن أتحدث اليوم ؟

يوجد نضوب فى الأوفياء

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الشر يضرب فى الأرض

وليس له نهاية "

إن روح صاحبنا قد جزع من الموت، واقترح حياة رغدة كوسيلة يجد فيها مخلصا، ثم وقد أثاره رعب الموت وخيبة الأمل فى الاستعدادات المادية لمواجهته، فإن صاحبنا (كاره البشر، الرجل التعس) ينطوى على نفسه برهة ويتحول إلى التأمل فى الحياة، وصورت لنا القصيدتان السابقتان ما يراه عند تحوله هذا.

(٣) أما القصيدة الثالثة، فهى الارتداد المنطقى عن أى أمل خافت فى أن الحياة قد تكون مستطاعة، إلى الاعتقاد النهائى بأن الموت وحده هو الفكاك من التعاسه التى وقع بين براثنها.

وهذه القصيدة الثالثة أنشودة قصيرة فى مدح الموت، إنها ليست تأملا رفيعا فى مزايا الموت كالذى نجده بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة فى قصة أفلاطون عن موت سقراط، ولكنها صرخة لمتألم يرتد صداها إلينا من أقدم عصور العالم، ومن هنا تأتى أهميتها الفريدة، التى لا تخلو من جمال اختصت به، وشعور يجيش فيه الحنين والشوق، وهذا كله يظهر فى شكل صور محسوسة استمدت من حياة ساكن النيل، اليومية، تقول أبيات هذه القصيدة:

" الموت أمامى اليوم

(مثل) شفاء رجل مريض

مثل رائحة المر

مثل مجرى الغدير فى فيضه

مثل عودة رجل من مركب الحرب إلى بيته

الموت أمامى اليوم

كصحو السماء

الموت أمامى اليوم

كما يشتاق رجل لرؤيه بيته

عندما يكون قد أمضى أعواما فى الأسر "

تصور هذه القصيدة الحياة كمرض طويل نشفى منه عند الموت، الذى هو كعبيق المر يحمله نسيم النيل العليل، كعودة محارب أنهكت قواه الحرب، وهو يدنو من منزله، كل هذه التشبيهات تثير الوجدان العام فى أى عصر وفى أى إقليم.

(٤) وموضوع القصيدة الرابعة، النظرة إلى الأمام، إلى المستقبل النهائى، وتبدأ بعبارة " ذاك الذى هناك " ويعنى الإله الذى يوقع عقاب الشر على فاعله، وتختتم بحل يجعل الموت فناء الدخول لساحة الأبدية، وعلى هذا يلتمسه بأسرع ما يمكن، يقول:

" ذاك الذى هناك

سيقبض (على المذنب) كإله حى

ويوقع عقاب الشر على مرتكبه

ذاك الذى هناك

سيكون رجلا حكيما لم يعد

يصلى إلى رع عندما يتكلم"

وعلى هذا، وهو يتشوق إلى الانطلاق السعيد الذى يهيئه الموت، ووائق من المزايا العالية التى سيستمتع بها فى الآخرة، فإن روح صاحبنا التعس يرضخ فى النهاية ويدخل الظل، ويسير ليكون مع "أولئك الذين هناك" (الموتى).

إن قصة (كاره البشر) قصة تدين بمصدرها إلى تجارب فردية كان يتمرس بها رجال هذا الزمن فى الواقع، إنها معلم واضح فى تطور الوعى الذاتى الطويل،

فى تلك العملية النسقية البطيئة التى كان قصارها ظهور الفرد كعامل خلقى، فرد يرجع للضمير كسلطة أخيرة يمكنه بموجب وصايتها أن يواجه المجتمع ويحاكمه، ونتبين فى هذه الوثيقة مدى تأثير العوامل الاجتماعية فى مأساة الفرد ومن هنا بدأت الدعوة إلى الإصلاح والتجديد الاجتماعيين .

إن قصة (كاره البشر)، ولو أنها قصة تجربة فردية، فإنها مع هذا، تتضمن تأمل المجتمع الذى يرجع إلى نواحى قصوره، تجربة الكاتب فى معظمها، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر، فإن الاهتمام بالبلاء الاجتماعى، والقدرة على التأمل فى عدم وجود قدر للرجال وتبينه، والكوارث التى تصيب المجتمع، تظهر أيضا كموضوع تأملات قائمة، متشائمة فى هذا العصر، الذى قام فيه الوعى الذاتى المتزايد، كما قام أول اصطدام بالواقع .

(ج) "الوعى الأخلاقى" عند المصرى القديم، من " الفرد" إلى " المجتمع"

ونعرض الآن لثلاث وثائق، ترجع لعصر الاقطاع، تتضمن تجارب حياتية عاشها أصحابها، واصطداموا فيها بالواقع الذى انعدمت فيه وجود قيمة خلقية، وحلموا بأيام أفضل، الأولى لكاهن من هليوبوليس يدعى " خع خبرر ع - سنبر"والثانية لا منمحت الأول، المؤسس العظيم للأسرة التى كانت تحدث فى عهدها هذه التطورات الهامة فى الفكر، والثالثة يمكن أن يطلق عليها نصائح "أبوور".

(١) تجربة " خع خبر رع- سنبر "

ولد كاهننا فى عهد سيزوستريس الثانى (١٩٠٦ - ١٨٨٧ ق.م)، وهو يعبر فى تجربته، عن أفكاره القائمة عن المجتمع فى عجالة، كان لا يزال لها رواج بعد

ذلك بحو أربعمائة سنة، عندما نسخها كاتب فى عهد الأسرة الثامنة عشرة على لوح محفوظ الآن فى المتحف البريطانى[1] ومن بين ما جاء فى هذه الوثيقة نقرأ:

" .. إنى أتأمل فى الأشياء التى حدثت، الحوادث التى وقعت فى البلاد، إن التحولات تسير قدما، ليس على مثال السنة الماضية،وسنة أثقل عبئا من الأخرى .. الاستقامة نبذت خارجا، والجور يوجد فى وسط ردهة المجلس، إن خطط الآلهة تنتهك، والبلاد فى حزن، والحداد فى كل مكان، والبلدان والأقاليم فى نواح، إن كل الناس، على السواء، يرزحون تحت مظالم، أما عن الاحترام، فقد وضعت له نهاية، إن صباحا يجئ كل يوم ويرجع مرة أخرى إلى ما (سبق) أن كان، عندما أريد أن أتحدث (عنه) فإن أعضائى تقع تحت عبء ثقيل، لقد ألم بى حزن بسبب قلبى، إنه مجلبة للألم أن أسكت عما يتصل به"

" .. إنى أتأمل فيما حدث، إن الأرزاء تجئ اليوم، وغدا لا تكون مرت (المحن)، كل الناس صامتون فيما يتعلق به، (مع أن) الأرض كلها فى اضطراب عظيم، لا يوجد أحد حاليا من السوء، كل الناس على السواء يفعلونه، إن القلوب يستولى عليها الحزن، ذلك الذى يصدر الأوامر مثل ذلك الذى تصدر إليه الأوامر، إن قلب كل منهما راض، إن الناس يستيقظون له فى الصباح كل يوم (ولكن) القلوب لا تدفعه بعيدا، وماجرت عليه الحال أمس، هو مثل اليوم، **لا يوجد أحد من الحكمة، بحيث يدرك إدراكا حسيا، ولا يوجد أحد بلغ منه الغضب بحيث يتكلم**، إن الناس يستيقظون فى الصباح ليعانوا الألم كل يوم، إن مرضى طويل وثقيل، إن الرجل الفقير ليست لديه قوة لينقذ نفسه من ذاك الذى هو أقوى منه" وتصل الوثيقة إلى مناجاة الكاهن قلبه فيقول :

" .. إنى أتكلم إليك ياقلبى، أجب على (لأن) قلبا هوجم، لا يسكت، هاكم، إن شئون الخادم هى مثل (شئون) السيد، إن الحمل الذى يستقر فوقك ثقيل" .

هنا رجل أثر فية، تأثيرا عميقا، فساد زملائه، إنه يتأمل المجتمع ككل، ويعبر عن تعاسته الخاصة بالنظر إلى مثل هذا المصير المتوقع، إن شغله الشاغل هو المجتمع،

---

[1] المتحف البريطانى ٥٦٤٥، وكان جاردنر أول من تبين محتوياته ونشرها فى "نصائح حكيم مصرى" Admonitions of an Egyptian Sage كملحق ص ٩٥ – ١١٢ وألواح ١٧ – ١٨.

الذى عرقله خموده، غير القادر على تبين تعاسته الخاصة، أو إذا كان له وعى بهـــا ننى الإطلاق، فإنه يعدم القدرة على الابتكار للنهوض بتحديد نفسه.

وهنا نصل إلى عهد استيقظ فيه الناس، لأول مرة فى التاريخ، فى شعور عميق بعدم وجود قيمة خلقية للمجتمع.

(٢) تجربة " امنمحت الأول"

ولم يكن هذا الاعتقاد قاصرا على تأملات كاهن من هليوبوليـــس، رقيـــق الحال، إنه ينطق أيضا، فى الاصطدام بالواقع الذى تمرس به امنمحت الأول، الـــذى يضرب أيضا على نفس النغمة الكئيبة.

لقد ترك لنا الملك كلمة نصح وجيزة موجهة إلى ابنه (سيزوســـتريس الأول) الذى كان سيخلفه، بعد محاولة اعتداء - دنيئة - على حياة الملك المسن، قام بهـــا أولئك الذين كان يضع فيهم ثقته[1] .

يقول الملك الأب وهو يحدد الاستقامة لابنه :

" .. استمع إلى ذلك الذى أقوله لك
حتى يمكنك أن تكون ملك الأرض
حتى يمكنك أن تكون حاكم الأقطار
حتى يمكنك أن تزيد الخير
(قس) نفسك ضد كل مرءوسيك
إن الناس يصغون إلى ذاك الذى يدخل الرعب فيهم
لا تقترب منهم وأنت وحيد
لا تملأ قلبك بأخ

---

[1] يرجع تاريخ نسخ هذه الوثيقة إلى ما يقرب من نهاية حكم رعمسيس الثانى، ولعل أفضـــل وأوضـــح ترجمة هى تلك التى أوردها إرمان فى "برديات متحف برلـــين الملكـــى ٤٤-٤٥ Ausden Papyrus des KaenigLichen Museums Zu Berlin.
وراجع أيضا ماسبرو "فجر المدنية ٤٦٧ تذكرة ٢ Dawn of Civilization.

لا تعرف صديقا

أو تصطنع لنفسك مقربين

حيث لا تكون فى ذلك غاية

عندما تنام حافظ لأجل نفسك، على قلبك

لأن الإنسان لاأهل له

فى يوم السوء

لقد أعطيت المتسول، وأطعمت اليتيم

وقد سمحت بدخول من لا قدرله، وكذلك ذاك الذى كان عظيم الشأن

(ولكن) ذاك الذى أكل طعامى قام بثورة

ذاك الذى أعطيته يدى أثار الخوف فيها " .

وتأتى بعد كل هذا قصة المؤامرة على حياته، وهى حادثة كانت السبب إلى حد ما، لاصطدام الملك، مرير النفس، بالواقع.

(٣) نصائح أبوور

وهكذا تكشف لنا نقوش مصر القديمة عن أنه كان هناك رجال لمسوا تماما فساد المجتمع، وجسروا على أن يحلموا بأيام أفضل، و هذا مصلح خلقى آخر فى هذا العصر العظيم، يضع لنا، فى عرض فاجعى، ليس فقط اهتمامه العلنى العنيف لتلك الأزمنة، ولكن أيضا، نصائح تتطلع إلى تجديد المجتمع والعصر الذهبى الذى يمكن أن يتبعه، وهذه، ربما كانت أعظم وثيقة هامة فى هذه المجموعة التى نعرضها، ويمكن أن يطلق عليها نصائح أبوور[1]

وتحكى لنا هذه الوثيقة كيف أن الرجل الحكيم " أبوور" وفى حضرة الملك نفسه وآخرين، من الراجح أنهم الحاشية المجتمعة، يلقى اهتماما علنيا طويلا، عنيفا للعهد، ويختمه بالموعظة والنصح، ويعقب هذا رد موجز من الملك، وإجابة فى كلمات قليلة من الحكيم.

---

[1] راجع ألن .هـ. جاردنر The Admonitions of an Egyptian Sage, Leibzig, 1959.

ففى رؤية فاحصة لحياة سكان وادى النيل، يجد حكيمنا كل شيء فى ارتباك .

" لقد وقف دولاب الحكومة على التقريب، أن قوانين ساحة القضاء قد ألقى بها فى مهب الريح، والناس يمشون فوقها فى الأمكنة العامة، والفقراء يفضونها فى وسط الشوارع" .

" إن انحلال الحكومة هذا، يرجع سببه إلى حالة عنف وحرب داخل البلاد، إن الرجل يضرب أخاه من أم واحدة، ماذا يجب أن يصنع ؟ "

" انظروا : إن الرجل يذبح بجوار أخيه، بينما هو (الأخ) (يهجره) لينقذ أعضاءه هو، إن الرجل يعتبر ابنه عدوا له، إن العنف فى كل مكان، لا يوجد رجل الأمس " .

" انظروا الرجل (الذى يظفر) بسيدة نبيلة كزوجة، وأبوها يحميه، وذاك الذى دون (مثل هذه الحماية) إنهم يذبحونه "، إن الدم فى كل مكان، لا يوجد (انعدام) للموت، إن أكفان (الميت) تتحدث، قبل أن يأتى المرء بالقرب منها "

والى هذه الحالة من انحلال النظام والثورة فى الداخل، تضاف أهوال الغزو الأجنبى، يقول مصلحنا :

" .. وفى الواقع، توجد الصحراء فى البلاد، وأقاليم (مصر) أتى عليها التخريب، وحاملوا الأقواس يأتون إلى مصر" .

وبعد أن أصبحت البلاد فريسة للفوضى الداخلية والثورة، وعاجزة أمام غزوات الأجانب، فإن ممتلكات مصر دمرت، وتوقفت عمليات البلاد الاقتصادية، يقول (أبوور):

".. انظروا، كل مهرة الصناع، إنهم لا يعملون، إن أعداء البلاد أفقروا حرفها، إن الكاتب (يكسل فى مكتبه، لا يوجد عمل يقوم به، وعندما يفيض النيل، لا أحد يحرث لأجله(النيل) وكل إنسان يقول : لانعلم ماذا حدث فى البلاد؟"

" انظروا لقد تركت الماشية تشرد، ولا يوجد أحد يجمعها معا، وبما لأن اللحم يتوارى، على هذا النحو، فإن الناس يأكلون الأعشاب ويبتلعونها بالمياه، وفى الواقع

أصاب الحنطة الفناء فى كل جانب، والناس يحرمون من الملابس و(العطور) وزيوت الطيب، كل الناس يقولون: لايوجد شيء منها، إن المخزن أصبح خرابا".

و فى مثل هذه الأحوال الاقتصادية، فى الداخل، تتدهور التجارة الخارجية وتتوارى،

" الناس لا يبحرون صوب الشمال فى هذا الزمن، ماذا نصنع بخشب السدر اللازم لمومياواتنا، بالتحية التى يدفن بها الكهنة، وبالزيت الذى يحنط به (الأمراء)، وينـدر وجود الذهب وقد انتهت كل الحرف، ياله من أمر عظيـم، إن أهـل الواحـات (لايزالون) يأتون حاملين محصولهم للأعياد! " .[1]

مثل هذه الأحوال، يمكن توقعها، لأن الأمن العام للناس والسلع التجارية، قد زال. "ولو أن الطرق تقوم عليها حراسة، إلا أن الناس يجلسون فى الأدغال، إلى أن يـلتقى المسافر الذى دهمه الظلام حتى يستولوا على ما يحمل، إن ذلك الذى معه يؤخـذ منه، وتكال له الضربات بالعصا، ويذبح بقسوة"

"والواقع، أن البلاد تدور (نظام الأشياء ينقلب) كما تفعل عجلة صانع الفخار، إن ذاك الذى كان لصا هو سيد الثروة و(الرجل الغنى) هو الآن شخص انتهب، وحتى عندما لا تحترم القبور الملكية، فإن الناس لا يبذلون إلا القليل من الجهد لبناء قبر"

وهكذا، كما يوحى تشبيه دولاب صانع الفخار، فإن كل شيء انقلب رأسا علـى عقب، وقد أتت على الأحوال الاجتماعية ثورة تامة، ويقابل الحكيم (أبوور) بين ما كان وما هو الآن، متتبعا الأحوال التى طرأ عليها التغير، فيما يتعلق بأفراد معينين وطبقات المجتمع، فيقول:

" انظروا، إن ذاك الذى لم يكن لديه زوج من الثيران فإنـه (الآن) مـالك لقطيع، انظروا، إن ذاك الذى لم يكن لديه حنطة هو (الآن) صاحب مخازن غـلال، وذاك الذى اعتاد أن يجلب الحنطة لنفسه، فإنه (الآن) يعمل على صرفها (من مخزنـه الخاص)، انظروا، إن صاحب الثروة (الآن) يمضى الليل عطشان (بدلا مـن إقامـة الولائم)، وذاك الذى اعتاد أن يتسول ممالاته هو الآن صاحب كؤوس (فياضـة)؛

---

[1] هذه الملحوظة الأخيرة هى بالطبع تهكمية، بالإشارة إلى الحقيقة الواقعة، وهى أن التجارة الوحيدة مع العالم الخارجى التى تركت لمصر هى نتاج الواحات الضئيل الذى كان لايزال يتسرب .

انظروا، إن أصحاب الملابس أصبحوا (الآن) فى أسمال، وذاك الذى لم ينسج لنفسه هو (الآن) مالك النيل الرقيق"

وهكذا، يسير الحكيم من مقابلة إلى الأخرى، وفى مثل هذه الحالة، فإن المجتمع يسير إلى دمار . " الرجال قلة، ويوجد نضوب فى النساء، ولا يوجد حبل فى (أطفال) "

وفى الخراب العام، فإن التدهور الخلقى يأتى بين ثناياه، " إن رجل الفضائل يسير فى حداد بسبب ما حدث فى البلاد"، ويقول آخرون "لو كنت أعلم أين يوجد الإله، إذن لكنت قدمت القرابين إليه، وفى الواقع توجد (الاستقامة) فى البلاد فى اسمها هذا، ومايفعله الناس فى الرجوع إليها هو الجور ".

وهذا ينتهى بالكل إلى حالة من اليأس العام " فى الواقع قد زال المرح، إنه التنهد الذى يوجد فى البلاد، يختلط بالنواح، وفى الواقع، يقول العظيم والوضيع: اتمنى أن أموت، وصغار الصبية يقولون: لكنت أرجو أنه لا يوجد أحد يحفظ لى حياتى".

إن الحكيم، لايمكنه أن يرى هذا كله، دون شعور منه بأن الكارثة العامة تؤثر فيه، أيضا، تأثيرا عميقا، ويرجو انتهاء كل شئ. " إنى لأرجو أن تحل نهاية الناس، وألا يوجد حمل أو ميلاد، "

ويبلغ به الأمر أن يرجع باللائمة على نفسه، لأنه لم يحاول أن ينقذ الموقف قبل ذلك. " ليتنى أعليت صوتى فى ذلك الوقت، حتى يمكن أن يخلصنى من الألم الذى أوجد فيه، الويل لى للتعاسة فى هذا الزمن ! "

هذه هى الصورة القاتمة التى يصورها الحكيم المصرى، ويشمل الاتهام الذى يوجهه الحكيم، ثلثى الوثيقة على التقريب، إنه يعرض الأحوال التى سادت مصر فى زمن محدد.

وكما يمكن أن يتصور من الحزن البالغ الذى يرى فيه " أبوور" تعاسة الزمن، فإنه لايرضى بأن يترك جيله فى هذه الحالة التى لارجاء فيها، إنه الآن يتحول إلى الوعظ ويحض مواطنيه أولا أن يحطموا أعداء الملك، ويدعو كل الناس لمواصلة القيام بالشعائر المقدسة بالنيابة عن الآلهة، هذا ماتتناوله المجموعة الثانية من مواعظ (أبوور)، وفيها تبرز أهم عبارة فى حديث الحكيم بأجمعه، وهى واحدة من أهم

العبارات مدى الأدب المصرى كله؛ فيتطلع حكيمنا إلى إصلاح البلاد، دون ريب، كنتيجة طبيعية للنصائح عن الإصلاح التى وجهها إلى قلوب مواطنيه، إنه يرى الحاكم المثالى الذى يتشوق إلى مجيئه، إن ذلك الملك المثالى حكم مصر مرة بوصفه إله الشمس، رع، وعندما يتذكر الحكيم ذلك العصر الذهبى، فإنه يعقد مقابلة بينه وبين الحكم الجائر الذى وقعت البلاد بين براثنه. " إنه يبرد أوار اللهب، يقال إنه راعى كل الناس، لا يوجد سوء فى قلبه، عندما تكون قطعانه قليلة، فإنه يمضى النهار فى لم شملها، إذ أن قلوبها عطشى، أين هو اليوم؟ هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم؟ انظروا، إن قوته لاترى".

وتكشف لنا عبارة الحكيم عن صورة الحاكم المثالى، الوالى القويم الذى "لايوجد فى قلبه سوء" ويسير هنا وهناك أشبه "براع" يجمع قطعانه التى نقصت وأخذ منها العطش، إن عنصر الأمل فى أن مجيء الملك الصالح قريب، لا يتطرق الخطأ إليه فى الكلمات النهائية:

" أين هو اليوم! هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم؟ انظروا: إن قوته لا ترى ".

وبهذه العبارة الأخيرة، يضيف المرء دون طواعية، "حتى الآن"، إن مغزى الصورة الخاص هو فى واقعة معينة، إذا لم تكن خاصة بالبرنامج الاجتماعى فعلى الأقل بالمثل العليا الاجتماعية، هى أن الحلم الذهبى الذى يراود مفكرى هذا العصر السحيق كان قد تضمن الحاكم المثالى الذى يتحدب على خاصته ويحميهم ويحطم الأشرار، وسواء أكان مجئ هذا الحاكم قد تنبأوا به أم لم يتنبأوا، فإن رؤيا أخلاقه وعمله قد رفعه هنا عاليا، دون أن يتسرب إلى ذلك خطأ، الحكيم القديم، رفعها بحضور الملك الحالى وأولئك الملتفين حوله، حتى يمكنهم أن يروا شيئا من سنائها.

وفى ذهن الحكيم، تستدعى المقابلة المروعة بين حكم الملك المثالى وحكم فرعون الموجود الآن، والذى يقف الحكيم فى حضرته، أعنف استنكار لملكه، وبهذا يضع الحكيم المسئولية عن كل ما أعاده للذاكرة فى مثل هذا الوضوح، على عاتق الملك.

إنه يقول " الذوق والمعرفة والاستقامة لديك " (ولكن) " إنه الصـراع ذاك الذى تجلبه فى البلاد، ومعه صوت الاضطراب، ها هو ذا الواحد يهاجم الآخـر، إن الناس يسيرون وفق ذلك الذى أمرت به"

ويصل حكيمنا إلى ذروة المواجهة بينه وبين الملك عند ما يقول له:

" إنك فعلت (هكذا) لتجلب هذه الأمور، لقد نطقت بالأكاذيب "

ويعود الحكيم لحظة الى وصف حالة المجتمع الكئيبة التى شغل بها فى اتهامه الطويـل، ومع هذا، فإن تقدم فكره يتجه صوب إصلاح الحال فى المستقبل الذى كان ينصـح به بعد ختام الاتهام واستنكاره المرير للملك، والآن، على هذا فإن التعاسة المسـئول عنها تندمج فى صورة نهائية من " الفرح والرخاء "

وفى تعرف الأعماق التى هوت إليها حكومة ومجتمع فاسان، فإن حكيمنا يشـترك مع " كاره البشر"، فى أشياء كثيرة، وعلى أية حال فإن هذا وجد حظوظه الفرديه مهددة تهديدا فيه القضاء عليها، فى البلايا العامة حتى لم يكن يوجد أمل، ورغب فى الموت على أنه الحل الوحيد، أما " أبوور " من الوجهة الأخرى، **فإنه يتطلـع فى تيقن تام، صوب خلاص للمجتمع فى المستقبل**، إنها لظاهرة ذات مغزى، إنه ظـهر فى هذا العصر السحيق، الانعزال الضرورى والقدرة على التأمل فى المجتمع، وهمـا أمران لم يكونا معروفين قبل ذلك فى فكر الإنسان، وكذلك مما له مغزى أعظـم خطرا، هو هذه الرؤيا لخلاص المجتمع المرجح وقوعه، وأن العامل فى ذلك الخـلاص هو ملك قويم يحمى خاصته، ويطهر الأرض من الأشرار، إن هذا، ماهو إلا أقـدم ظهور لمثالية اجتماعية؛ بدأت تهتم بالطبقات العادية فى المجتمع، فانحاز "المثل الأعلى الرفيع" للعدالة نحو الفقير والمضطهد، وهذا يمثل نسمة من ذلك الجو الخلقى السليم الذى يشيع فى تفكير طبقة الموظفين الاجتماعيين.

وماهو جدير بالذكر حقا أن نجد هؤلاء الارستقراطيين من حاشية فرعـون - منذ أربعة آلاف سنة خلت - يعنون، فى درجة وافية، بصـالح الطبقـات الدنيـا ليحملوا أنفسهم عناء إصدار ماهو، من الواضح جدا، نشر دعوة لعـهد عدالـة وعطف نحو الفقير، لقد كانوا واضعى نشرات فى حملات إصلاحية من أجل العدالة الاجتماعية.

(د) "حكمة بتاح حوتب" و "نزعة التفاؤل" عند المصرى القديم:

وتعطينا حكمة "بتاح حوتب"[1] دليلا على هذا الانحياز الجديد للعدالة، وقد نطق بهذه الحكمة شخصية تاريخية فى مناسبة معينة، فى الأسرة الخامسة التى كان ينتمى إليها الملك (أسيس)، وفى الواقع، كان يوجد سلسلة من الوزراء يطلق عليهم (بتاح حوتب)، وهم الذين أوصلوا الوظيفة من الأب إلى الابن، ولقد وقع حكم (أسيس) قبل عصر الإقطاع بما يقرب من خمسمائة سنة، وفيه نجد حكمة وزيره العامل (بتاح حوتب) تدور على الألسن.

وتبدأ هذه الحكمة بقول بتاح حوتب:

" أيها الملك سيدى، إن الضعف يجئ والهرم يتقدم، والأعضاء تسير إلى ضعف و(الوهن) يتجدد، والقوة تفنى بسبب خمود القلب (التفكير)، إن الطيب يصبح سيئا، كل ذوق يرحل، إن ما تفعله الشيخوخة بالناس سيئ فى كل شىء، إن الخياشيم تسد، إنها لا تتنفس، إنه سيئ سواء وقف المرء أم جلس"

إن (بتاح حوتب) يلتمس من الملك بأن يعين ابنه فى وظيفة الوزارة بدلا عنه، بسبب تقدمه فى العمر، الذى يعدد أمراضه فى وصف تصويرى، ولكى يمكن أن يصبح ابنه على علم بواجبات مثل هذه الوظيفة الهامة، فإن الوزير يلتمس من الملك الإذن بتعليمه.

وتتضمن هذه الحكمة وصايا (بتاح حوتب) الحذرة عن العيش القويم السليم، وعن المسلك الرسمى المتعقل، وهذا يمثل نتاج التجارب الناضجة التى تمرست بها أجيال كثيرة فى الحياة الرسمية.

---

[1] إن حكمة "بتاح حوتب" محفوظة فى خمسة مخطوطات:

(أ) بردية برس papyris prisse فى المكتبة القومية فى باريس رقم ١٨٣-١٩٤،

(ب) الثلاث برديات الموجودة فى المتحف البريطانى رقم ١٠٣٧١، ١٠٤٣٥، ١٠٥٠٩،

(جـ) لوح كتابة من الخشب فى متحف القاهرة المعروف باسم لوح كارنرفون رقم ٤١٧٩٠.

راجع: 1847.

ماسبرو : "خمس سنوات من الحفر فى طيبة"، جامعة أكسفورد، ١٩١٢

وبينما فقد رجال الدين من أمثال (كاره البشر) و(خع خير رع - سـبنو)، وإلى حد كبير أيضا (أبوور) نفسه، كل ثق فى فضيلة عالم الموظفين التقليدية، فـإن (حكمة بتاح حوتب) تكشف لنا، على الأقل، عن نواة من أحسن الناس فى الطبقة الرسمية والقصر لايزالون يشعرون بالثقة فى طريقة العيش القديمة الطيبة، التى وصلت من أسلافهم، إذا ما حوفظ عليها بعناية.

وشرع (بتاح حوتب)، لما جاءه الإذن الملكى، فى تعليم ابنه "فاتحة الأمثلة من القول الطيب" الذى وصل إليه حكيمنا بعد طول تأمل وتمرس فى الحياة، وكان مما جاء فى أقواله، التى تعرضت للعديد من المسائل الخلقية، مايلى:

١- "إذا وجدت رجلا عاقلا فى زمنه، زعيما فى التفكير، أكثر تفوقا منك، فـإثن ذراعيك وأحن ظهرك".

٢- "إذا كنت زعيما (أو إداريا) تصدر المراسيم للجمهور، فالتمس لنفسك كـل مسألة متفوقة حتى يبقى مرسومك على الزمن دون سوء فيه، عظيمـة هـى الإستقامة (الحق، الصواب، والعدالة) إنها باقية على الزمن".

٣- "إذا كنت تحرث ويوجد زرع فى الحقل، فإن الإله يعطيه كزيادة فى يـدك، لا تشبع فمك دون ذوى قرابتك".

٤- "إذا كنت زعيما (أو "إداريا") فاستمع (بهدوء) إلى خطاب مقدم الالتمـاس: إن ذاك الذى أصابه ضيم يرغب فى أن يبتهج قلبه، فى أن يفعل ذاك الذى مـن أجله أتى... إنه زينة القلب، أن يستمع المرء (إلى شكوى الآخرين) فى رفق".

٥- "إذا أردت أن توطد الصداقة فى منزل تدخل فيه كسيد أو كأخ أو كصديق.. أينما دخلت، كائنا ما كان، فخذ حذرك من الاقتراب من النساء، إن ألفا مـن الرجال يصبحون لا شىء بسبب الاستمتاع بلحظة وجيزة أشبه بحلم، والرجال يحصلون (فقط) على الموت لمعرفتهم بهن".

٦- "إذا أردت أن يكون إجراؤك حسنا، فامتنع عن كل شر وخذ حـذرك مـن فرصة الطمع، إن ذاك الذى يدخل فيه، لا يتقدم، إنه يفسد الآباء والأمـهات، إنه يفرق بين الزوجة والرجل، إنه حزمة من كل شئ سافل. موطد هو الرجـل

الذى يكون مقياسه الاستقامة، الذى يسير وفقا لنهجها، إنه تعود أن يحصل على ثروته بها، (ولكن) الطماع لايبت له".

٧- " إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت وضيعا، واستحوذت على أملاك بعد أن كنت فقيرا فيما سبق، فى المدينة، فلا تكن (متكبر) القلب بسبب ثروتك، لقد جاءت إليك كهبة من الإله".

٨- "إن الاستماع إلى النصح يعود بالنفع على المستمع، أما عن الجاهل الذى لا يستمع. فإنه لا يؤدى شيئا، إنه يعتبر الحكمة جهالة؛ وما فيه نفع، مصابا، إن حياته بذلك أشبه بالموت، إنه يموت وهو يعيش، كل يوم، إن الناس (يتحاشون) خصاله بسبب وفرة الأرزاء التى تقع عليه كل يوم".

فى حكمة (بتاح حوتب) لدينا ما يدل على الحكمة الدنيوية الناضجة فى رجل سياسة ورجل حاشية عجوز حنكته التجارب، وله حياة من التجربة طويلة، ومن السهل أن نتصور أميرا عجوزا راضيا عن نفسه، يتطلع إلى الوراء، فى رضاء عظيم، إلى حياته العملية الطويلة، ويستمد من تجربته الطويلة، نصائح سلوكية، رسمية وشخصية، ذات قيمة أخلاقية، كبيرة.

وهذه النصائح، بوجه عام، تعلم رقة الحاشية، والاعتدال والتعقل، دون انعدام التوكيد الذاتى، وتظهر أسلم إحساس طيب فى الثبات والتوازن اللذين توصى بهما الشباب، ولا يوجد شىء من التشاؤم القائم كالذى يوجد لدى "كاره البشر" أو "خع خبر رع -سنو"، إن الحياة تستحق الاهتمام الوفير، إن قدرا من المتعة، سليما، يجب أن يؤخذ، ويجب ألا يسمح للأثقال الرسمية أو غير الرسمية، بأن تختصر ساعات الاستجمام، يقول حكيمنا حول هذا المعنى:

" اتبع رغبتك طالما كنت حيا، لا تفعل أكثر مما يطلب منك، لا تقصر وقت إتباع رغبتك، إنه ممقوت، التعدى على وقته، لاتحمل الهم كل يوم إلا فى تدبير أمور بيتك، عندما تجيئ الممتلكات، فإتبع الرغبة (لأن) الممتلكات لا تكتمل عندما يكون هو (صاحبها) فى ضيق".

وعلاوة على هذا، فإن الإنسان يجب عليه -على الدوام- أن يظهر بوجه بشوش لأنه-كما يقول حكيمنا - " لا فائدة من النواح على اللبن المراق"، وفى النهاية، فإن النغمة السائدة هى جد خلقى مسيطر يشيع فى كل فلسفة حكمة

الوزير العجوز المألوفة، وأعظم أمر، ظهورا فيها كلها، هو " افعـــل الصـــواب"، "وعامل الكل بالعدل".

(هـــ) تعقيب

وهكذا يمكن أن نشهد تحولا عظيما فى الوعى الأخلاقى عند المصرى القديم، إن التشاؤم - الذى كان يرى فيه رجال عصر الإقطاع الباكر -الحياة الدنيويـــة، وهم يشاهدون جبانات الأهرام المهجورة، أو عندما كـــانوا يجيلـــون الفكـــر فى الآخرة، وخيبة الأمل فيها، التى كانت تراود بعضهم، قوبلا بتيار مضاد متواصل من الاستقامة والعدالة الاجتماعية، كانت له السيادة، وعرضتـــه فلســـفة المفكريـــن الاجتماعيين الأكثر تفاؤلا، التى يشيع فيها الرجاء.

هؤلاء الرجال كانوا يرون الأمل فى الجهد الإيجابى الذى يبذل فى ســـبيل أحـــوال أفضل، ويجب أن نعتبر نصائح (أبوور) أمثلة أخاذة لمثل هذه الجـــهود، ويجـــب أن نتعرف فى كتاباتهم أسلحة أول فئة معروفة من المحاربين الاجتماعيين والأخلاقيـــين، والإصلاحيين.

وعلى هذا، فإننا نتبين المصريين، وقد نشأ فيهم، فى تاريخ باكر - يدعو إلى الدهشة والاحترام والتقدير - إحساس بعدم قيمة الإنسان الخلقية، ووعى بـــالتزام خلقـــى عميق الغور، تطور إلى أن أصبح أمرا رسميا من الإله، وسرعان ما أصبـــح مقتـــهم للجور، مقت الإله له، ومثلهم العليا الخاصة، أصبحت كذلك، مثل الآلهة العليا، مما كسب لها قوة الوصاية.

فقد أعلنت السياسة الملكية رسميا، أنه أمام منصة القضاء يجب أن يتوقع العظيـــم والقوى نفس المعاملة ونفس الحكم اللذين يلقاهما الفقير ومن لا صديق له.

ومن العسير أن نشكك فى أن مثل هذه المبادئ للعدالة الاجتماعية، كما وجدناهـــا فى هذا العصر، أضافت بقوة إلى ما فيه تطوير الاعتقاد بأنه ليس الرجل ذا الصولـــة والثراء، ولكن رجل العدل والاستقامة هو الذى يكون مقبولا أمام كرسى قضـــاء الإله العظيم، وعلى هذا، فإنه هنا تنتهى دعوى العظيم والقوى، الخاصة العجيبـــة فى مكانه الاعتبار والنعيم فى الآخرة.

إن النصوص الجنازية التي تزخر بها توابيت هذا العصر، المصنوعة من خشب السدر، تبين في وضوح أن الوعي بالمسئولية الخلقية في الآخرة تعمق كثيرا منذ عصر الأهرام.

إن الفلاح، الذي لا صديق له، وهو يقيم دعواه أمام الوكيل الأعظم يقول له: "خذ حذرك! إن الأبدية تقترب"، إن الحاكم يضع على باب قبره، سجل العدالة الاجتماعية في معاملته للكل كأحسن جواز سفر يمكن أن يبتدعه لأجل الرحلة الطويلة؛ ومرارا وتكرارا، يقيد رجال عصر الإقطاع في قبورهم دعاواهم في استقامة الخليقة "إن (فلانا من الحكام) قد فعل الاستقامة، إن مقته كان الإثم، إنه لم يره".

إن موازين العدالة، التي كان الفلاح يرفع إليها أمره، مرارا عديدة، قد أصبحت الآن في الواقع، تجد مكانا في واقعة التبرئة في الآخرة. "إن السوء قد طرد، إن الجور قد اكتسح، قام بذلك الذين يزنون بالموازين في يوم الحساب".

فأصبح واضحا الآن، لمن تكون موازين الصدق، ومن هو القاضي الذي يقوم بالرياسة عليها، وكيف يقف الجميع أمام القضاء، لاتفرقه بين قوى وضعيف، بين غني وفقير، بين حاكم ومحكوم، هكذا وصل الوعي عند المصري القديم، فلا أقل من تقرير أن المباحث الأخلاقية، أن التأمل في الحياة، وأن العمل من أجل تحسين الحياة وإجادتها، وأن الالتزام الخلقي، إن كل ذلك موجود عند المصري القديم.